الصغيرة.. الكبيرة

نجـــاة

حالة مـن الغناء.. الوجه لوحة رومانسـية.. والخد مياس والـكلام همس وعلـى القد. والصـوت مفاجأة. أما العلاقـات مع المجتمع والناس ليسـت متناسـبة مـع كل ذلك إن غضبـت لا تصالح وإن قاطعت لا تعود وإن خاصمت فلا تنتظر منها أن ترضى.

إنها صوت الحب نجاة.. الكبيرة والتى عرفناها طويلا باسم نجاة الصغيرة.

اسمها نجاة محمد محمود حسنى البابا.. والدها من أصل سورى وهو فنان فى مجال الخط العربى. ولدت فى ١١ أغسطس ١٩٣٦ فى عمارة تطل على دار الأوبرا القديمة. لها أختان و٤ أشقاء. عزالدين كان عازفـا على آلة الكمان وله تجارب فى التلحين. وفاروق أحب آلة القانون وسامى وسعاد أحبا الغناء.

أما نجاة فقد امتلكت صوتا رقيقا حساسـا جميلا. وأذنا موسيقية تلتقط ما تسـمعه من نغم وكأنها قد سـلطت عليـه كاميرا موبايل. فتسـجله فى ذاكرتها ليظهر فى جلسـة عائلية ولا مانع من وجود بعض أصدقاء الوالد فيها.

لم يكن الفنان الخطاط محمد حسنى. مقتنعا بالتعليم الحكومى. فالتعليـم الخاص أضمن. اتفق مع السـت سـكينة لتعطى دروسـا خصوصية لأطفاله بالمنزل فى القراءة والكتابة وعلم الحساب. وشرح بعض القصص الدينية. ولما بلغت نجاة سن الرابعة انضمت إلى مدرسة السيدة سكينة إلى جانب أشقائها.

obeikandl.com

استشعر عز الدين حسنى عازف الكمان موهبة الغناء عند شقيقته الصغيرة.. فتطوع لتعليمها مبادئ العزف على آلة العود وتحفيظها بعض أعمال التراث الغنائى.. وقصائد وأغنيات أم كلثوم وكان يصطحبها معه إلى حفلات معهد الموسيقى الشرقى وكان عازفا فى الفرقة الخاصة بالمعهد.

فى المعهد استشعر بعض الأعضاء المحبين للغناء التراثى موهبة الطفلة الصغيرة. فعرضوا على شقيقها أن تشارك بصوتها فى إحدى الندوات التى يقيمها المعهد كل شهر وبصفة دورية.

رحب عز الدين بالعرض، وشاركت نجاة الصغير جدا فى السن بأغنية كبيرة هى «غلبت أصالح فى روحى» من أغانى أم كلثوم تأليف أحمد رامى تلحين رياض السنباطى.

وقد صرح بعض من حضروا الندوة أن الحاضرين عندما استمعوا إلى الصوت الرائع، اشرأبت أعناقهم يبحثون عن مصدره. فلم يروه، وهنا انبرى المسئول عن إدارة الندوة وأمر بإحضار كرسى لتقف عليه صاحبة الجسم الضئيل والصوت القادر حتى يراها من يسمعها. ثم تكررت هذه الصورة فى حفلات كثيرة غنت فيها نجاة.

ممن حضروا هذه الندوة، كان متعهد الحفلات الشهير الحاج صديق أحمد، الذى سبق وأن تحمس لصوت عبد الحليم شبانه- حافظ فيما بعد- وتعاقد معه للاشتراك فى عدة حفلات تقام فى الإسكندرية. وأيامها لم يحقق المطرب الجديد النجاح الذى كان يأمل فيه. ولم يحقق متعهد الحفلات الفلوس التى حلم بها.

اتفق الحاج صديق مع عز الدين على أن تغنى نجاة فى الإسكندرية. وفى أكثر من حفلة.

فى الحفلة الأولى غنت قصيدة أم كلثوم وأحمد شوقى ورياض السنباطى «سلوا قلبى» واستقبلها الجمهور بالتصفيق الحاد. أما الموسيقار محمد عبد الوهاب الذى حضر الحفل متخفيا فقد خشى على الطفلة المطربة من خطر الغناء قبل أن يكتمل تكوينها الجسمانى. مع إنها كانت قد حاولت أن تخفى طفولتها وراء فستان كلثومى الشكل. لونه أحمر. ولم يشفع لها عند عبد الوهاب أداؤها الرصين وصوتها الوقور وثباتها أثناء أداء واحدة من أصعب الألحان السنباطية وهى «سلوا قلبى».

لقد أحب الجمهور السكندرى صوت نجاة فى قصائد وأغانى أم كلثوم. وصفق لها على عكس ما فعل مع عبد الحليم حافظ الذى رفض أن يقلد محمد عبد الوهاب أو يغنى أغانيه على المسرح.. فاستمرت حفلات المطربة الصغيرة لمدة شهرين كاملين فى الإسكندرية.

وذاع صيت نجاة واختلط عند البعض مع اسم المطربة الكبيرة نجاة على بنت الدقهلية المولودة ١٩١٤ وصاحبة الإسطوانات الناجحة والتى غنت فى الإذاعات الأهلية وشاركت فى افتتاح الإذاعة المصرية الرسمية ١٩٣٤، وهى بطلة أول فيلم غنائى تقوم ببطولته مطربة هو «دموع الحب». بطولة محمد عبد الوهاب ١٩٣٥ ثم بطلة خمسة أفلام بعد ذلك، إنها واحدة من نجمات الغناء فى زمانها. وتمييزا لنجاة الجديدة عن نجاة الكبيرة أطلق على الجديدة اسم نجاة الصغيرة ولم تكن هذه التسمية لفرق السن بينهما إنما أيضا لصغر الجسم عند الصغيرة.

كانت نجاة الصغيرة تحمل ألة العود التى تحتل ثلاثة أرباع حجم جسمها وبجوارها شقيقها عز الدين حاملا علبة الكمنجة. يرافقها فى حفلاتها خاصة بعد أن تعاقدت مع أكثر من ملهى ليلى، ومنها ملهى «الكيت كات» وكان يغنى فيه المطرب ذائع الصيت محمد قنديل.

سافرت أم كلثوم فى رحلتها العلاجية الأولى فطلبت الإذاعة من نجاة أن تغنى القصيدة الكلثومية «ولد الهدى» فى مناسبة المولد النبوى الشريف. وهناك، زارت الإذاعى الكبير محمد محمود شعبان (بابا شارو) طلب منها أن تذهب معه إلى الأستديو لتغنى أمام الميكروفون تمهيدا لضمها للأصوات التى تغنى فى برنامجه الشهير والذى ينتظره أطفال مصر من الراديو كل يوم.

ونجحت نجاة فى اختبار بابا شارو، فعهد بها إلى ملحن البرنامج أحمد خيرت صاحب الألحان الشهيرة «قطتى صغيرة واسمها نميرة» و«أمى أحبك مثلما أهوى وأرغب فى الحياة» و«هل تعلمون تحيتى.. عند الحضور إليكمو» وغيرها وكان خيرت قد تقدم بمذكرة للمسئولين فى وزارة المعارف (التربية والتعليم فيما بعد) يطلب فيها اعتبار الأناشيد فقرة مهمة فى منهج التعليم واستجاب المسئولون لندائه ١٩٢٧.

لحن أحمد خيرت للطفلة نجاة أنشودة «إلى اللقاء» ونشيد «الله فى علاه يحرس كل الناس».

وشـــاركت نجاة الصغيرة بالغناء فى برامج إذاعية للكبار لكنها غنت ما يناســـب عمرها الصغير. ففى برنامج كان اسمه «فى الليل» غنت «اليتيم» يقول مطلعها «هايم شريد.. بائس وحيـــد.. عايـــش غريب.. بين أوطانـــى. الليل يطول.. وأنا ذليل.. مـــا ليش نصيب.. غير أحزانى» وهى تأليف حسن عبد الوهاب وتلحين سيد مصطفى.

وكانت رحلة نجاة إلى سوريا عام ١٩٤٧، بمصاحبة فرقة موسيقية كونها الملحن اللبنانى فريد غصن هى آخر عهدها بتقليد أم كلثوم وتقديم أغنياتها فى الحفلات. حيث كانت تغنى ثلاث وصلات كل ليلة فى سوريا من أغنيات أم كلثوم.

كانت السينما أسبق من الإذاعة فى تقدير موهبة نجاة الصغيرة.. وكانت سببا فى شهرة مطربات من مصر والعالم العربى مثل صباح ونور الهدى وسعاد محمد ونجاح سلام. فبعد أن عادت نجاة من رحلتها إلى سوريا، سارعت السينما لتستثمر النجاح الذى حققته فى الشارع العربى. وأشركها المخرج محمود ذو الفقار فى فيلمه «هدية» عام ١٩٤٧ وغنت فيه مع أبطاله عزيزة أمير وشكوكو مشاهد غنائية كتبها بيرم التونسى ولحنها حسن صقر وشكوكو.

وفى نفس العام جســـدت نجاة الصغيرة شـــخصية نجاة الكبيرة فـــى فيلم بعنوان «الكل يغنى» من إخراج عز الدين ذو الفقار وغنت فيه نجاة «أنا لسه نونو.. نونو صغيرة».

ثم قامت بدور تمثيلى لبنت طيبة تحب ابن عمها إسماعيل يس وتسافر مع والده لباريس لانقاذه من براثن راقصة وذلك فى فيلم «بنت البلد» الذى أخرجه حسن الصيفى ١٩٤٨.

ثم أشـــركها المخرج عبد الفتاح حسن فى فيلم «محسوب العيلة» عام ١٩٥٠ وشاركت فى أغنياته «إفرح غنى» «الأدباتية» «المولد» «الزفة».

وأقبلت الإذاعة على صوت نجاة الصغيرة، وصنعت انطلاقتها الحقيقية، ففى عام ١٩٥٣ ســـجلت أول أغنياتها للكبار وهى دعاء دينى كتب أشـــعاره حسين حلمى المانسترلى ولحنه رياض الســـنباطى ولم تمر إلا شهور قليل وقد لحن لها السنباطى واحدة من أجمل قصائدها من تأليف إمام الصفطاوى ويقول مطلعها:

أنا ذكرى للهوى الهيمان فى موكب عمرى
أملأ الليل بهمـــس علـــه يـــدرك أمـــرى
أملأ الكون حنينا فاض من نفحـة شعـــرى
وأنادى أيـــن آمـــالى وأحلامـــى وبـــدرى

وفـى عـام ١٩٥٤ كانت نجاة المطربة الجديدة قد لفتت الأسمـاع وأثبتت قدرة على الغناء الرصـين. كلمـات وألحانا. فأبدى محمد عبد الوهاب رغبـة للتعامل معها. لحن لها «كل ده كان ليه» من تأليف مأمون الشناوى وأذاعتها الإذاعة المصرية كثيرا. لكن القدر سرعان ما حرم المطربـة الوليدة من الأغنية الشـعبية الناجحة. إذ توقفت الإذاعـة عن تقديمها بعد أن غناها ملحنها فى حفل أقيم فى ثكنات سلاح الفرسان بكوبرى القبة بمناسبة نجاة الرئيس جمال عبد الناصر فى حادث المنشية الشهير. أبدع محمد عبد الوهاب فى الأداء وأضاف إلى لحنه ألحانا أكثر جمالا وعمقا واسـتغرقت الأغنية على المسـرح ثلاثة أرباع الساعة وكانت تستغرق بصوت نجاة أقل من سـبع دقائق.. وزاد من موقف الإذاعة فى حلم أغنية نجاة، أن عبد الوهاب قام بتسجيلها فى الاستديو ليستغرق أداؤها مدة مساوية للتسجيل الذى يحمل صوتها.

أراد الله أن يعوض نجاة بخسارتها أغنية ناجحة فسجلت قصيدة «نجوى الرسول» فى نفس العام الذى غنت فيه «كل ده كان ليه» ١٩٥٤ وهى من تأليف فؤاد شاكر ولحن أحمد صدقى ويقول مطلعها:

ع الربوات الخضر من أرض يثرب وقفت أناجى المصطفى بدموعى

كما لحن لها أحمد صدقى أغنية بعنوان «أنا خالى» من تأليف مرسى جميل عزيز وكذلك سجلت نجاة فى نفس العام دعاء «قل ادع الله إن يمسسك ضر».

وكانت شادية قد غنتها فى فيلم «ما ليش حد» عام ١٩٥٣. وهو من تلحين كمال الطويل أشعار والده محمود زكى الطويل.

وهل عام ١٩٥٥ فهل السعد كله على نجاة الصغيرة. فقد سجلت ١٨ أغنية. واشتركت فـى برنامـج غنائى إذاعى هو «مجنون ليلى» أشـعار أحمد شـوقى وألحـان عبد الحميد عبدالرحمن.

أما الأغانى فكانت حسـب ترتيب تسـجيلها كالتالى: «حماك الله» شعر محمود حسن إسماعيل لحن حسـين جنيد، و«اوصفولى الحـب» تأليف محمد على أحمد تلحين محمود الشـريف «استغاثات» شـعر الحسـن بن هانى ألحان أحمد عبد القادر و«هجرت الحب» تأليف إمام الصفطاوى تلحين كمال الطويل و«يا راضيا» شعر الإمام الصرصرى تلحين فؤاد حلمى و«حبيبى سـامعنى» تأليف مأمون الشـناوى تلحين رياض السنباطى و«حلم الهوى» تأليف مصطفى عبد الرحمن تلحين رياض السـنباطى و«حمام الحرم» أشعار محمود حسن

إسماعيل ألحان أحمد صدقى و«وطنى صبايا وأحلامى» مع المطرب عبد الرؤوف إسماعيل أشعار أحمد مخيمر تلحين محمود الشريف و«بتقوللى بحبك من إمتى» تأليف محمد على أحمد تلحين محمد الموجى. و«سلم لى عليه» تأليف مأمون الشناوى تلحين رؤوف ذهنى و«عطشان ياسمرانى محبة» تأليف مرسى جميل عزيز تلحين محمود الشريف و«أسهر وانشغل أنا» تأليف مأمون الشناوى تلحين كمال الطويل و«عزة الغرام» تأليف عبد الفتاح الشرقاوى تلحين على إسماعيل و«الليل» شعر عبده بدوى تلحين أحمد عبد القادر و «وردة» تأليف عبد الفتاح مصطفى تلحين فؤاد حلمى.

وفى العام التالى سجلت نجاة الصغيرة تسع أغنيات للإذاعة هى «شهر الصيام» تأليف عبد المنعم السباعى تلحين أحمد عبد القادر و«يا عيد يا نادى» تأليف كمال منصور تلحين محمد الموجى و «نشيد الدجلتين» أشعار عدنان الراوى تلحين عبد الحميد توفيق زكى و«بلادنا الحلوة» تأليف عبد المنعم السباعى تلحين كمال الطويل و«الجمهورية» تأليف بيرم التونسى وتلحين عزت الجاهلى و «الجنة هى بلادنا» تأليف صلاح جاهين تلحين كمال الطويل و«طاير يا حمام» تأليف عبد الفتاح مصطفى تلحين أحمد صدقى وهى ضمن البرنامج الغنائى «أم شناف» و«نادانى الليل» تأليف محمد على أحمد تلحين زكريا أحمد و«طول عمرى بحبك واحكيلك» تأليف أنور عبد الله تلحين كمال الطويل.

فى عام ١٩٥٧ سجلت نجاة الصغيرة للإذاعة أغنيات «بلادى» تأليف كمال عبد الحليم تلحين عبد الحميد عبد الرحمن و«ليه خلتنى أحبك» تأليف مأمون الشناوى تلحين كمال الطويل، وكانت ليلى مراد غنتها فى أحد أفلامها واعترضت الإذاعة على بعض كلماتها ولما تم تغييرها رفضت ليلى أن تعيد التسجيل، فغنتها نجاة بالكلمات المعدلة وسجلت نجاة أيضا «كلمنى عن بكره» تأليف صلاح جاهين تلحين كمال الطويل و«يا هاجر بحبك» تأليف عبد المنعم السباعى تلحين رياض السنباطى. وعادت ألحان محمد عبد الوهاب لصوت نجاة فغنت من تلحينه وتأليف إسماعيل الحبروك «أما غريبه».

ويشهد عام ١٩٥٨ انطلاقة كبيرة لاسم نجاة الصغيرة. فقد سجلت للإذاعة أربعًا من أغنياتها التى حققت شهرة واسعة لها ونجاحا ثبت أقدامها كمطربة على أعقاب النجومية غنت «عيون الحليوه» تأليف صلاح جاهين تلحين كمال الطويل و «مش هاين أودعك» تأليف مأمون الشناوى وتلحين بليغ حمدى و «آه بحبه» تأليف أنور عبد الله تلحين محمد

عبد الوهاب و «غريبه منسيه» تأليف مرسى جميل عزيز تلحين كمال الطويل وقد حققت الأخيرة نجاحا كبيرا استثمره المخرج أحمد بدرخان فجعل اسمها عنوانا لفيلم عادت به نجاة إلى السينما ويمكن اعتباره البداية الحقيقية لها على الشاشة الفضية.

وضع بدرخان صورة نجاة الصغيرة منفردة فى أغنية «فيلم غريبه» الذى عرض عام ١٩٥٨ مع إن أبطاله كانوا من كبار نجوم السينما عماد حمدى وأحمد مظهر وأحمد رمزى وعقيله راتب وغنت فيه نجاة «غريبة منسيه» و«أما غريبه»

فى عام ١٩٦٠ شاركت نجاة فى نشيد «الوطن العربى» كتبه أحمد شفيق كامل ولحنه محمد عبد الوهاب وغناه مجموعة من نجوم الغناء وفى نفس العام تم اللقاء الأول بين صوتها وأشعار نزار قبانى وألحان عبد الوهاب. وكانت قصيدة «أيظن» التى نقلت اسم نجاة الصغيرة إلى مرحلة النجومية المتوهجة. وفازت القصيدة كأحسن أغنية فى استفتاء أجرته مجلة «الأنوار» اللبنانية فى نفس عام إذاعتها. ٠

بعد عامين لحن عبد الوهاب قصيدة «لا تكذبى» من أشعار كامل الشناوى وغنتها نجاة الصغيرة. وبنى عليها المخرج عز الدين ذو الفقار فكرة فيلم «الشموع السوداء» الذى تم عرضه عام ١٩٦٣. وغنت فى الفيلم أيضا «إيه هوه ده» تأليف مرسى جميل عزيز تلحين محمد الموجى و «كل شىء راح وانقضى» تأليف إسماعيل الحبروك تلحين بليغ حمدى.

وشاركت نجاة بأغنية فى فيلم «القاهرة فى الليل» الذى أخرجه محمد سالم ١٩٦٣. اقتربت نجاة من محمد عبد الوهاب وتحمس لصوتها بعد نجاحها فى قصائد «أيظن» «ولا تكذبى» «وألف أهواه» التى لحنها عام ١٩٦٢ من أشعار نزار قبانى. فقام بتلحين كل أغانى فيلميها «شاطئ المرح.. و٧ أيام فى الجنة» باستثناء أغنية «دوارين» التى قدمتها فى الفيلم الثانى من تأليف وتلحين الأخوين رحبانى.

فى فيلم «شاطئ المرح» الذى أخرجه حسام الدين مصطفى عام ١٩٦٧ غنت نجاة «القريب منك بعيد» و«آه لو تعرف» و«ع اليادى» وكلها من تأليف حسين السيد. وفى فيلم «٧ أيام فى الجنة» غنت «إلا انت» تأليف مأمون الشناوى و«مرسال الهوى» تأليف حسين السيد.

وعادت نجاة لتسجيلات الإذاعة عام ١٩٦٧ لتسجل «جاى فى ميعادى» تأليف مأمون الشناوى وتلحين بليغ حمدى.

تزوجت نجاة من رجل الأعمال موفق قبانى وأنجبت ابنها الوحيد وليد. وذهبت إلى لندن لتضمن تعليما وتربية رفيعة. وكانت كلما يأخذها الحنين إليه تشد الرحال إلى هناك حتى كبر وليد وأصبح قادرا على السفر والعودة دون مساعدتها وتم الطلاق بينها وبين والده رجل الأعمال.

صورت نجاة الصغيرة قصيدة «إلهى ما أعظمك» للتليفزيون وأخرجها محمد سالم. وشاركت فى سهرة درامية خاصة بعنوان «الدعاء».

وفى عام ١٩٧١ أسند المخرج حلمى رفله بطولة فيلمه «ابنتى العزيزة» لنجاة وقام بالبطولة أمامها رشدى أباظة وجسدت دور فتاة يتيمة تعمل بالتدريس للأطفال ويسمعها رجل الأعمال فيقرر تبنيها دون أن يعلن عن اسمه. وتغنى نجاة فى الفيلم اسكتش «يا أعز الحبايب» مع الأطفال فى مدرسة للأيتام. و «أما براوه» و «دوبنا يا حبايبنا» والثلاث من تأليف مرسى جميل عزيز وتلحين بليغ حمدى ومحمد الموجى ومحمد عبد الوهاب.

آخر أفلام نجاة هو «جفت الدموع» أخرجه حلمى رفلة عام ١٩٧٥ وشاركها البطولة محمود يس واشترك معها بأداء «ريستاتيف» لكلمة «بحبك» فى أغنيتها «حمد الله على السلامة» تأليف عبد الرحمن الأبنودى وتلحين كمال الطويل. كما غنت قصيدة «إلى حبيبى .. متى ستعرف كم أهواك يا أملا» أشعار نزار قبانى لحن محمد عبد الوهاب.

توقفت السينما فى المسيرة الفنية لنجاة لكن الغناء استمر فغنت من ألحان محمد الموجى «دوبنى دوب فى غرامه» و«ما استغناش عنك» و«حبيبى لولا السهر» و«عيون القلب».

وغنت من ألحان بليغ حمدى «حبك حياتى» «نسى» «حبك الجبار» «الطير المسافر» «سكة العاشقين» «فى وسط الطريق» «موكب حب» و«بكانى لما خلصت دموعى» «ليلة من الليالى».

ومن ألحان كمال الطويل غنت «استنانى» و«عيش معايا» و«لو يطول البعد».

ومن ألحان حلمى بكر غنت «ما اظنش يا حبيبى» و«مهما الأيام» و«فاكره» و«ما تنساش» و«حبيبى جاى حدانا».

ومن ألحان عز الدين حسنى غنت نجاة «حقك عليه وسامح» و«على طرف جناحك يا حمام». كما غنت من ألحان سيد مكاوى «تفرق كتير».

ومن الأغانى التى لحنها محمد عبد الوهاب لنجاة بعيدا عن السينما كانوا بيقولوا البنت حتفضل زى ماهيه» تأليف حسين السيد «العوازل ياما قالوا» تأليف أنور عبد الله «دلوقتى أو بعدين» «ساكن قصادى» «شكل تانى» «شوف كنا فين» «أسألك الرحيلا».

وبالإضافة إلى ما ذكرناه من لقاءات فنية بين صوت نجاة الصغيرة وألحان رياض السنباطى. فقد التقيا فى قصائد وأغنيات أخرى منها «الوحدة» شعر صالح جودت و«يا قلبك» و«أنا أملك.. أنا حبك» وهما من تأليف حسين السيد و«باسم وادى النيل باسم العرب» تأليف أحمد رامى و «رباعيات الخيام» وهى أبيات مختلفة عما غنته أم كلثوم ومطلعها «طوت يد الفجر أستار الظلام».

□□□

صوت نجاة الصغيرة هو همس الحب فى ضوء القمر. وتغريد البلبل حين يشدو على ذرا أغصانه. صوت يغنى فيسقينا سلافة الروح والقلوب، لتحلق معه الروح بلا جناح. إنها سيدة الغناء الرومانسى وتشكل مع عبد الحليم حافظ مدرسة قائمة بذاتها. سمعنا منها أجمل أغانى النصف الثانى من القرن العشرين ثم أغلقت المدرسة أبوابها بعد رحيل عبدالحليم وتوقف نجاة.

والرومانسية ثورة على قيود الكلاسيكية وهى حالة نفسية خاصة ليست للفن فقط. إنما للفنان أيضا. والفنان الرومانسى يتمسك بلونه الخاص وخياله الجامح وانفعالاته السريعة وميله إلى التمرد. وبالرغم من أن نجاة الصغيرة قد وهبها الله صوتا قادرا على أداء الكلاسيكيات الغنائية العربية. وأبدعت فى ذلك منذ طفولتها المبكرة إلا إنها نجحت فى استشراف حركة التطور وتخلصت من أسلوب الغناء الذى يعتمد على إظهار العضلات واستعراض الإمكانيات الصوتية. من حيث المساحة العريضة والمقدرة على أداء الجمل اللحنية الصعبة التى تزخرفها الذبذبات العربية (العُرَبْ) وتنتهى بقفلة (حراقة) تستخرج الأهات من الصدور والتصفيق الحاد من الأيدى.

اختارت نجاة أن تستخرج الأهات من قلوب جمهورها بغناء لا يعتمد على الإبهار السمعى إنما على التعبير الصادق عن الأحاسيس الإنسانية الرقيقة، وهو الغناء الأكثر بقاء بصرف النظر عن تقلبات الدنيا وحركة التاريخ.

مر الغناء العربى بمراحل يمكن تصنيفها. لو استرشدنا بأساليب الأدب المحلى أو العالمى وكذلك مدارس الموسيقى العالمية إلى أساليب خمسة هى الكلاسيكية والرومانسية والتعبيرية والتأثيرية والزخرفية. ولكل أسلوب ملامحه وخصائصه النابعة من ظروفه التاريخية ومقتضيات استخدامه.

ويمكن أن نستكشف تطبيقات عملية بهذه الأساليب من تراث الموسيقار محمد عبدالوهاب مطرب وملحن القرن العشرين.

التقى صوت نجاة الصغيرة مع ألحان محمد عبد الوهاب فى أغنية «كل ده كان ليه» عام ١٩٥٤ قبل أن ينال عبد الحليم حافظ هذا الشرف الفنى الكبير بعام كان عبد الوهاب فى هذا التاريخ قد تخلص من شكل الغناء الكلاسيكى وجرد صوته من المحسنات العربية فى الأداء من عُرَب وقفلات. وركز فى الغناء بالإحساس. وكان عبد الوهاب مثلا أعلى لنجاة وعبد الحليم حافظ. حيث أحب كل منهما صوت عبد الوهاب وشياكته فى الأداء. ونطقه الجميل للغة العربية الفصحى والعامية فلما التقيا بألحانه نجحا وصفقت لهما الجماهير.

وكثيرا ما يتفوق التلميذ على أستاذه وهو ما حدث مع نجاة وعبد الوهاب. وعبد الحليم أيضا. فقد أضافت نبرة المعاناة فى سن الطفولة عند نجاة، وعبد الحليم. إلى جمال الحس عندهما ليتفوقا على أستاذهما.

وغنت نجاة من ألحان فرسان الزمن الجميل رياض السنباطى ومحمود الشريف وكمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى وسيد مكاوى، أجمل ما سمعنا فى النصف الثانى من القرن العشرين، فأطربت وعبرت.

وقالب القصيدة الغنائية يحتاج إلى مقدرة خاصة فى أداء اللغة العربية والإحساس بموسيقاها والجرس العام. وإلى صوت رصين وقور يحمل عمق لغة الضاد وتوافرت هذه الصفات فى صوت نجاة الصغيرة فقد تعلمت وقرأت بمعرفة السيدة سكينة ثم تدربت فى مدرسة أم كلثوم وغنت قصائدها الخالدة.

ولم يكن النجاح الهائل الذى حققته قصيدة «أيظن» لنجاة الصغيرة وليد الصدفة إنما لسهولة كلماتها وجمال معانيها والتعبير عنها فى اللحن، والأداء القادر الفاهم لنجاة الصغيرة.

وتحـدى الثلاثى نـزار قبانى ومحمد عبد الوهاب ونجاة الصغـيرة المثل الإنجليزى القائل «النجاح لا يتكرر» فقد تكرر النجاح، (مرة واتنين وتلاته). فقدموا لنا بعد «أيظن» قصائد «ماذا أقول له» و «إلى حبيبتى» و «أسألك الرحيلا» ومعها قصيدة كامل الشناوى «لا تكذبى».

ومـا دام الصوت لائقـا لأداء قصيدة، فكان من اللازم أن يدخل محراب سـيد البنائين للحن القصائد العربية، الموسيقار رياض السنباطى. وقد أجادت فى أداء ألحانه لتثبت أنها عندما اختارت اللون الرومانسـى لغنائها إنما كان ذلك لإحسـاس منها بما يجب أن تغنيه وليس هروبا من الكلاسيكيات وهى قادرة على أدائها بأستاذية وتمكن.

والنجـم الكبـير لا تصنعه الموهبة وحدها. فكم من مواهب تم دفنها قبل أن ترى الدنيا. وكم من موهبة طارت على جناح آخرين فلما انكسـر الجناح لم تسـتطع التحليق بنفسـها ونالت مصير عباس ابن فرناس المغامر العربى صاحب الأجنحة الصناعية.

إن فـن إدارة الموهبـة لا يقـل أهمية عن قيمة الموهبة نفسـها. فصاحب الصوت يحتاج حاسـة فنية تسـاعده على تذوق الكلمة الحلوة والنغمة الجميلة. ولا يصح أن يقعد منتظرا من يهرولون إليه بأعمالهم.

استمعت نجاة فى جلسة فنية مع محمد الموجى إلى مطلع لحن قصيدة «رسالة من تحت الماء» وتصورت أن عبد الحليم حافظ الذى لحنها الموجى من أجله. تباطأ فى تسـجيلها. وربما لم يكن متحمسـا لها ففاتحت الموجى فى أن تغنى اللحن الذى كتب أشـعاره نزار قبانى واستشعر عبد الحليم نية نجاة فسارع لتنفيذ القصيدة وغنائها فى أحد حفلاته وفى ذلك دليل على أن نجاة لم تكن موهبة يديرها آخرون.

ودليل آخر على ذلك. فالنجوم إذا اصطدمت بموهبة تتحمس للتعامل معها والاسـتفادة من حماسـها وقدراتها. وإقبال نجاة على غناء لحنين لعز الدين حسـنى دليل على ذلك وتعاملها مع الفنان هانى شـنودة يؤكد أنها فنانة تسـعى لتطوير أغانيها وغنت من ألحانه «بحلم معاك» و«أنا بعشق البحر» وهما من تأليف عبد الرحيم منصور و«عطشان» من تأليف سيد حجاب و«يوم الهنا» من تأليف صلاح جاهين.

وسـيرا فى نفس الاتجاه. غنت من ألحان سـامى الحفنـاوى «قصص الحب الجميلة» و«إنـت.. إنت» وهما مـن تأليف عبد الرحمن الأبنودى و«إلا فـراق الأحباب» و«كل فين وفين» من تأليف سمير الطائر.

وفى واحدة من الحفلات التى غنتها نجاة بمناسبة عيد النصر فى ٦ أكتوبر غنت من ألحان صلاح الشرنوبى «إطمن».

□□□

ربطتنى بنجاة الصغيرة علاقة قصيرة المدة قوية الصداقة. اعتمدت فى أساسها على المكالمات التليفونية الطويلة. حتى كنا نتابع حفلا ساهرا من حفلات أضواء المدينة كاملا على التليفون. فتبدأ المكالمة فى التاسعة مساء ولا تنتهى قبل الثانية بعد منتصف الليل. والتقينا مرة واحدة فى مكان إقامتها فى ذلك الوقت وهو فندق شيراتون القاهرة.

ولم تدم العلاقة طويلا إنما تم قطعها. بل وقد حولتها من طرفها إلى عداوة. فإذا ذكر اسمى تبادر المتحدث بمفردة مصرية هى «قُطُع».

أما سبب العداء فهو قصيدة «أسألك الرحيلا» كتبت عنها عندما استمعت إليها لأول مرة ١٩٩١ ويبدو أن رؤيتى لصوتها فى القصيدة أغضبتها وعلمت ذلك من الموسيقار محمد عبدالوهاب عندما ناقشنى فيما كتبت.

وربما يكون نقل هذا المقال هنا وسيلة ليشاركنى القارئ فى إحساسى بالظلم من موقف نجاة. وربما كنت أنا المخطئ فى حقها دون أن أرى. قلت فى المقال:

عندما تلتقى موسيقى عبد الوهاب وشعر نزار قبانى بصوت نجاة. فلابد أن يرصد تاريخ الغناء هذا اللقاء باهتمام خاص. ولا أحد ينسى اللقاءات السابقة فى «أيظن» و«ماذا أقول له» و«إلى حبيبى».

استمعت إلى اللقاء الجديد فى قصيدة «أسألك الرحيلا» وقد استغرق تلحينها ٣ سنوات كاملة. وقد غير نزار بعض كلماتها بناء على طلب عبد الوهاب ونجاة. فالقصيدة ٣ مقاطع وبدون مقدمة. أعاد كتابة نهايتها لتكون منطقية مع دلع البنات. وتتماشى مع المتطلبات الحياتية للمرأة. بدأها بطلب للفراق واستحلافه بحق ما لديهما من ذكريات وحب منقوش على فم كل منهما. وأنهاها.. بالرجاء بألا يفترقا.. وأن ينزع معطف السفر ويبقى معها حتى نهاية العمر.

القصيدة زاخرة بالألفاظ الرومانسية التى أوحشنا سماعها وبعضها أصبحت غريبة على أسماعنا من كثرة هجرها. لنسمع فيها لنفترق أحبابا. فالطير كل موسم تفارق الهضابا والشمس يا حبيبتى تكون أحلى عندما تحاول الغيابا «إنها عودة للصور الرومانسية

الجميلة التى تميز بها الغناء العربى الأصيل على طول تاريخه.. ولا أستطيع إلا أن أشيد بالمستوى العالى للمقطع القائل «إبق حبيبى دائما كى يورق الشجر.. إبق حبيبى دائما كى يهطل المطر.. ابق حبيبى دائما كى تطلع الوردة من قلب الحجر».

لو أن ملحنا عاديا قد تصدى لهذه المفردات الصعبة، لظلت له مطبا فى طريق وصولها لآذان المستمع. لكنه عبد الوهاب الذى لحن روائع «مصرع كليوباترة» و«الجندول» و«الكرنك» و«النيل نجاشى» و«فى الليل لما خلى» سيطر على ألفاظ القصيدة ليشعر المستمع بأنها لحنت من فوق بسكلته يتشاقى عليها صبى غاوى دندنه.

ظهرت الثقافة الفرنسية والمصرية فى لحن عبد الوهاب لقصيدة «أسألك الرحيلا» فالمقدمة «ريتميه» فيها نبر الموسيقى الفرنسية ممزوجة بجمل شعبية من أفواه بائعى الخيار فى الحارة المصرية. وقد عاوده الحنين لحى الشعرانى وأغانى المنشدين فلحن «ماذا أنا» فى شكل موال لا يؤديه إلا الشيخ على محمود.

انتشرت الآلات المصرية المنفردة وهى الناى والكمان، كما استخدم الجيتار الأسبانى، والماندولين، أما الإيقاعات فكعادة عبد الوهاب دائما تتنقل بين أكثر من ستة إيقاعات مختلفة منها «السمبا» و«الصعيدى» و«الفوكى تروت» وأراد أن يقضى على الأساس الشائع، بأن الإيقاع الشرقى ملازم لهز الوسط. فخسف بصوت الرق والإيقاعات الشرقية واختفى صوتها فى بعض المناطق فى اللحن على رغم الإحساس بها، واكتفى بدلا منها بصوت الجيتار (بيز) والكونترباص. أما المقامات فقد استعرض عددا من المقامات الشرقية منها «الكرد» و«الصبا» و«السيكا» ولم ينس كالعادة أن يؤكد مقولة بتهوفن الشهيرة «لا شئ يقف أمام الأجمل». فيقدم مفاجأة لحنية أو نقلة غير معتادة لا يعترف بها قانون التلحين وعلم الموسيقى، ولكنها مستساغة للأذن. انتقل فجأة من مقام «السيكا» إلى «كرد الحسينى» وفى جملة قصيرة جدا «فيرز» صوت نجاة أى جعل من صوتها شكلا فيروزيا عندما غنت أثناء اللزمة الموسيقية للمقطع الثالث وهى خليجية الطعم فأخرج من صوتها ما لا يعرف عنه من حيث المساحة الصوتية. والتعبير أيضا، واستغل صوتها الطائر فى دندنة موسيقية أنهى بها لحنه ليعطى تأثير النشوة بالقرار الموفق لها بطلبها من الحبيب البقاء بدلا من الرحيل.

لقد طرأ شـيء مـا على صوت نجاة في قصيدة «أسـألك الرحيلا» وقـد عرفت بأدائها الوهابي- نسـبة إلى الموسـيقار محمد عبد الوهاب - خاصة عندمـا تغنى لحنا له. لكنها هنا أكثر فصاحة وتبيانا. بدأت متفائلة على رغم سـواد المعنى لكن النهاية فسـرت السر، ولا أذكر حرفا غنته واتعبنى فى البحث عن ملامحه ولا حاول الهروب من أذنى.

هـذا هو المقال الذى أنهى العلاقة بينى وبين نجـاة. لكن علاقتى بأغانيها لم تنقطع. إذ ظلت المطربة المفضلة لى. ولا أترك فرصة إلا وأعلن فيها إعجابى بصوتها. وإحساسـها وقدرتها على إدارة موهبتها والتمنى لها بدوام التوفيق.

والموقف المتشـدد من نجاة إزاء ما كتبته يعكس طبيعتها العنيفة فى الخصومة. ورؤيتها للحياة الاجتماعية وتشـككها فى نية الأخرين. ويكفى دليلا أن نفس المقالة أصابت فنان آخر هو حسن أنور عازف الرق فى الفرقة الماسية التى قامت بتسجيل لحن القصيدة. وجاء فى المقال أن عبد الوهاب «خسـف بالرق» وعاتبنى الرجل الصديق ولم يدم العتاب طويلا. ولم يؤثر الموقف فى العلاقة الإنسانية بيننا إلى أن توفى رحمه الله.

غنـت نجاة الصغيرة عدة أغنيات لم تلحن لها خصيصا، هى «ع الحلوه والمره» من أغنيات عبـد الغنى السـيد وقدمتها فى فيلم «بنت البلد» و«يا حبيبـى قوللى آخرة جرحى أيه» وكان محرم فؤاد قد غناها فى فيلم «وداعا يا حب» ١٩٦٠، ثم غنت بتوزيع موسـيقى جديد لهانى شـنودة أغنيات محمد عبد الوهاب «ما كانش ع البال» و«محلاها عيشـة الفلاح» و«يا مسـافر وحـدك» وكانـت قد غنت «ليـه خلتنى أحبك» والتى سـبق أن قدمتها ليلى مـراد فى أحد أفلامها.

وتعد قصيدة «لا تنتقد خجلى الشـديد» التى كتبتها الشـاعرة الكويتية د. سعاد الصباح ولحنهـا كمال الطويل. إثباتا جديدا على حسـن إدارة نجاة لموهبتها. فالكلمات والمعانى تناسـب صوت نجاة الرومانسـى الرقيق. والأنوثة والحياء والتسـليم بضعف المحبة أمام حبيبها. القصيدة تقول:

لا تنتقد خجلى الشديد فإننى بسيطة جدا وأنت خبير
يا سيد الكلمات هب لى فرصة حتى يسافر مرساد العصفور
خذنى بكل بساطتى وطفولتى. أنا لم أزل أخطو وأنت قدير
من أين تأتى بالفصاحة كلها وأنا يتوه على فمى التعبير

أنا فى الهوى لا حول لى أو قوة إن المحب بطبعه مكسور
يا هادئ الأعصاب إنك ثابت وأنا على ذاتى أدور.. أدور

والأرض تحتك مخمل وحرير
فرق كبير بيننا يا سيدى
فأنا محافظة وأنت جسور
وأنا مقيدة وأنت تطير
وأنا مجهولة جدا وأنت شهير

ولا أتصور أن أستمع إلى هذه المعانى مغناة بصوت غير صوت الحب نجاة الصغيرة. وأدركت هى ذلك فحاربت فى أن تخرج هذه التحفة الغنائية من إدراك ملحنها كمال الطويل الذى عرف بالوسوسة الفنية والحرص على التأكد من الرضاء الكامل عن أى عمل له قبل أن يرى النور. وقيل إنه إمعانا فى الحرص على ألا ترى القصيدة النور. طلب مبلغا ماديا كبيرا من نجاة مع أن المعروف أن الطويل لم يكن يتعامل ماديا مع المطربين إنما مع المنتجين فقط. لكنها ذريعة لتأجيل ميلادها.

القصيدة لحنها كمال الطويل فى قالب لا يتشابه مع قوالب القصائد التى سبق أن لحنها لعبد الحليم حافظ مثل «سمراء» «إنى ملكت فى يدى زمامى» و«ذات ليلة» و«لقاء» ولا لقصيدتى أم كلثوم من ألحانه وهما «لغيرك ما مددت يدا» و«غريب على باب الرجاء».

يبدأ لحن «لا تنتقد خجلى» بجملة إنسيابية جذابة وبدون إيقاع «أدليب Adlip» تلعب فيها آلة البيانو الدور الرئيسى. تدخل بعدها الجملة الأساسية السريعة الحية على إيقاع «الفالس السريع» قريب الشبه من الطابع الاسبانى الراقص من مقال «الكرد» المصور على درجة «الحسينى» «لا» يتلوها. ثم عودة للأدليب لتغنى نجاة بأسلوب تعبيرى فى جملة مقطعة «لا تنتقد.. خجلى الشديد».. تفصل كل مقطع جملة بالنبر «بستيكاتو» تعزفها الوتريات بإصبع العازفين وليس بالأقواس.

تنتشر الجملة الفالس بين لحن القصيدة. لعمل توازن بين الغناء الهادئ الحساس والحيوية المطلوبة للحن الذى ينتهى مقطعه الأول بقفلة مسرحية أى نوتة مفتوحة صاعدة. لتعود جملة الفالس.

وتغنى نجاة على الواحدة الكبيرة ومن مقام البياتى وهو قريب الشبه من مقام «الكرد» الذى بدأ به لحن القصيدة. تغنى «من أين تأتى بالقصة كلها» وعندما تصل إلى «أنا فى الهوى» تعود للجملة الإنسيابية المعبرة عن الكلمات ويعود الإيقاع مع «يا هادئ الأعصاب..»

فى المقطع الأخير للحن القصيدة تمهيد بجملة تعبيرية «فرق كبير بيننا يا سيدى» لقفلة ساخنة منفعلة.. «وأنا مجهولة جدا.. وأنت شهير..» وهى قفلة مسرحية مفتوحة على خلفية من جملة الفالس الرئيسية التى تمثل رباطا عضويا قويا للحن القصيدة الرومانسية الجميلة.

حددت الظروف موعد بداية المشوار الغنائى لنجاة الصغيرة لكنها جددت بنفسها موعد الختام. فقد غنت قصيدة «لا تنتقد خجلى» فى تونس بمصاحبة فرقة موسيقية كونها وقادها الموسيقار محمد كرم من خلال حفل ناجح كانت الجماهير الحاضرة تغنى جماعيا مع نجاة كل أغنياتها وعادت لمصر لتعلن الاعتزال. فلم تستمع الجماهير العربية إلى هذه التحفة الفنية، باستثناء الجماهير التونسية حيث تم طبعها على شريط كاسيت هناك. ثم اختفت تماما من الأسواق بعد شكوى من ورثة مؤلفها.

وكما ظهرت نجاة الصغيرة عام ١٩٥٨ بالحجاب عند تصوير قصيدة «إلهى ما أعظمك» للتليفزيون من إخراج محمد سالم عادت لنفس الصورة لكن فى الحياة وبعيدا عن كل الكاميرات. وأصبح المكان المحبب لقلبها هو الحرم الشريف بعد مشوار جميل وطويل فى الغناء. حيث تفوقت وزرعت حديقة كبيرة من الحب والجمال.

إنها نجاة الصغيرة اسما ... الكبيرة فى العطاء الفنى.

□□□